الفصل الخامس

الألفاظ والأدوات الجديدة

كان إيجاد لفظٍ جديدٍ واحدٍ من قبل شاعرٍ أو أديبٍ عند العرب يُعدّ بمثابة فتحٍ كبير، ولا سيّما إذا وقع هذا اللفظ موقعه في العقول والقلوب فسار على ألسنة الناس وتناولته أقلام الكتّاب والشّعراء.

وكان ورود مثل هذا اللفظ في شعر الشاعر، ولو مرّةً واحدة، كافياً لأن يلتقطه العرب فيطلقوه على الشاعر فيغلب على اسمه الأصليّ. وهكذا اكتسب النابغة الذبيانيّ اسمه من استخدامه اللفظ (نبغَتْ) في قوله:

فقد نبغتْ لنا منهمْ شؤونُ

واستحقّ المرقِّش الأكبر هذا الاسم لقوله:

الدارُ قَفرٌ والرسومُ كما　　　رَقَّشَ في ظَهْرِ الأديمِ قَلَمْ

واكتسب المتلمِّس اسمَه من بيته المشهور:

فهذا أوانُ العِرضِ حَيّا ذُبابَهُ　　　زنابيرُهُ والأزرقُ المتلمِّسُ

ولُقِّب المُسَيَّب بنُ عَلَس بهذا اللقب لقوله:

فإنْ سَرّكُمْ ألّا تَؤوبَ لِقاحُكمْ　　　غِزاراً فقولوا للمُسَيَّبِ يَلْحَقِ

ومع هذا فإنّ الإعجاز الحقيقيّ في القرآن لا يكمن في جدّة اللفظ وحده، بل في تلك الصدمة النوويّة المركّبة والشاملة التي صَدمت بها العاصفةُ اللغويّة القرآنيّة نواةَ اللغة العربيّة التقليديّة، في زمنٍ قياسيٍّ عجيب.

لقد حدث الانفجار في ليلةٍ واحدةٍ، ليلة حِراء، واكتمل في بضع سنين.

obeikan.com

ولم تكن اللغة الجديدة قادرةً على انتزاع القبول من العرب واعترافهم بها فحسب، ثمّ فهمِهم لها وإدراكِهم لمعانيها وأبعادها بسهولة، بل تجاوزت كلّ ذلك إلى انتزاع إعجابهم وانبهارهم، بغضّ النظر عن تصديقهم أو إنكارهم للدين الجديد، واستسلامهم، المصدِّق منهم والمنكِر، لحقيقة أنّهم أمام نصٍّ "يعلو وما يُعلى" و "يَحْطِم ما تحته" كما صرّح بذلك أحد كبار المنكِرين الذين ظلّوا على إنكارهم حتّى النهاية.

مقاومة اللغويّين لفكرة اللغة الجديدة:

وربّما كانت تلك الحقيقة هي السرّ الذي دفع بلغويّينا القدماء، الذين فاتتهم لحظة الانفجار، إلى أن يدرأوا عن أذهانهم فكرة أنّ القرآن قد أتى بلغةٍ جديدة، أو حتّى بألفاظٍ جديدة، فكيف له، في ظنّهم، أن يفاجئ العربَ بكلّ هذا التجديد اللغويّ الشامل دفعةً واحدة، ثمّ يقبلونه مع ذلك ويفهمونه، ثمّ ينبهرون به ويُقبلون عليه، وهم يرون فيه النموذج البلاغيّ الرفيع الذي لا يجرؤ أن يتطاول إليه متطاول!!

لقد نسي أولئك اللغويّون، ببساطة، أنّهم أمام معجزة، وأنّ المعجزة لا تخضع لأيّة قاعدةٍ أو منطق.

وهكذا قاوم لغويّونا ونحويّونا، وعلى صعيدٍ واحدٍ تقريباً، كلَّ فكرةٍ عن الثورة اللغويّة التجديديّة التي أحدثها القرآن، وامتلأت كتب تراثنا بالحكايات والنوادر التي وضعها الوضّاعون لتَسخر من كلّ من تجرّأ وادّعى أنّ في القرآن لغةً جديدة، سواءٌ في الألفاظ أو التراكيب أو النحو أو البلاغة، بل أنكر بعضهم على القرآن حتّى الإعجاز العلميّ كما سبق أن قدّمنا.

سخّر اللغويّون مناهجهم التوثيقيّة لخدمة نظريّة الإنكار هذه، ظنّاً منهم أنّهم يدافعون بذلك عن القرآن الكريم ويثبتون عروبة لغته وهو الذي أُنزل (قرآناً عربيّاً) و(بلسانٍ عربيٍّ مبين).

وكان للمناهج التي اتّبعها لغويّونا وهم يجمعون شواهدهم من ألسنة الأعراب دورٌ كبيرٌ في إنكار الثورة اللغويّة التي أحدثها القرآن الكريم، فكان

obeikan.com

حسبُهم أن يسمعوا كلمةً شاردةٍ من فم أعرابيٍّ شاردٍ في بقعةٍ شاردةٍ من صحراء الجزيرة العربيّة المترامية الأطراف لتكون هذه الكلمة بمثابة قاعدةٍ عندهم يؤصّلونها ويبنون عليها في لغتهم ونحوِهم ما شاء لهم البناء، بل ليستشهدوا بهذه الكلمات على عروبة أو عدم عروبة كلمات القرآن، متناسين أن هؤلاء الأعراب، كما أكّدنا دائماً، كانوا باستمرار تحت التأثير اللغويّ القرآنيّ الذي وُلدوا وآباؤهم على صوت تلاوته، وكان يملأ حياتهم اليوميّة ويتنفّسونه مع الهواء. وهكذا صحّ في هؤلاء اللغويّين حكم أحد النحويين المعاصرين حين قال:

> في عصر التدوين كانوا يفرحون بكلّ كلمةٍ يسمعونها من فم العربيّ في البادية، ولا سيّما إذا كانت تفيدهم في وضع قاعدةٍ نحويّةٍ أو لغويّة، وأحياناً كانوا يقدّمونها على أيّ نصٍّ آخر، حتّى لو كان هذا النصّ وارداً في القراءات المُحْكَمة المتواترة[1].

بل نجد هذا النحويّ المخلص نفسه، وقد خبِر مِن تعنُّتِ بعض النحويّين ما خبر، يقف كتاباً كاملاً للدفاع عن القرآن أمام النحويّين، وقد صنّفهم جنباً إلى جنبٍ مع المستشرقين، وانتقد مناهجهم المشوّهة البعيدة عن الموضوعيّة[2].

ومع أنّنا لا نفضّل أن نقف من النحاة هذا الموقف الحادّ، كما لا نحبّ أن نذهب مذهب ضياء الدين بن الأثير في حكمه القاسي عليهم حين كان يتحدّث عن مذاهبهم في إعراب أدوات القرآن بقوله في مؤلَّفه المشهور (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر): "النحاة لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة"[3] فإنّ من الموضوعيّة أن نعترف بأنّ نحويّتهم كانت تَرجُح غالباً

---

(1) الأنصاريّ، أحمد مكّي. **نظريّة النحو القرآنيّ**. مرجع سابق، ص14.

(2) الأنصاريّ، أحمد مكّي. **الدفاع عن القرآن ضدّ النحويّين والمستشرقين**. القاهرة: دار المعارف 1973.

(3) ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: كامل عويضة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998. ج2، ص143.

obeikan.com

على فصاحتهم حين كانوا يُصدرون أحكامهم بشأن لغة القرآن وما حقّقته من فتوحاتٍ بلاغيّةٍ لا سابقة لها، وما أضافته من جوانب تجديديّةٍ محيِّرةٍ في قاموسنا النحويّ واللغويّ.

المعجزة: فهْمُ ما لا نتوقّع أن يُفهَم:

حين ندرس لغة القرآن الكريم لا بدّ أن نضع في أذهاننا بعض الحقائق عن الألفاظ الجديدة فيه بخاصّة.

لقد سبق أن أكّدنا أنّ من السهل حتّى على الطفل أن يخترع لفظاً، بل ما شاء من ألفاظٍ جديدة، ما دام يملك تسعةً وعشرين حرفاً بين يديه. إنّه يستطيع أن يعيد تشكيل هذه الحروف كما يشاء ليكوّن ملايين الكلمات الجديدة، ولكن السؤال المهمّ هو: من سيَفهم هذه الكلمات بعد ذلك؟ وما قيمتها الأدبيّة؟

هنا تتجلّى لنا بوضوحٍ حقيقة الإعجاز القرآنيّ؛ إذ لم يقتصر الأمر فيه على فهم العرب للنصّ الجديد من أول لحظةٍ سمعوه بها، أو لنقُل من ثاني لحظةٍ إذا تذكّرنا قصة عُتبة بن ربيعة مع سورة (فُصّلت)، مع أنّه كان يحمل لهم لغةً جديدةً بكلّ عناصرها وأبعادها الأساسيّة: الألفاظ والأدوات والمصطلحات والتراكيب والتعابير والسبائك والعلاقات اللغويّة والأعراف النحويّة والأفكار والتشريعات الجديدة والأخبار التاريخيّة والحقائق العلميّة. لقد تجاوز الأمر معهم مجرّد الفهم لما يسمعون، إلى الإعجاب الشديد البالغ حدَّ الذهول، واعترافِهم، الكافرِ منهم قبل المؤمن، بتفوّقه واستحالة الوصول إلى مَراقيه. فأيّ سرٍّ يختفي وراء هذا التأثير الخطير؟

طبيعة الألفاظ الجديدة:

من السهل ملاحظة أنّ أيّ لفظٍ قرآنيٍّ جديدٍ لا بدّ أن يكون قد توفّر فيه شرطٌ أو أكثر من الشروط الثلاثة التالية؛ بحيث نال القبول والاعتراف من جمهوره اللغويّ، بغضّ النظر عن نَيل تقديرهم وإعجابهم:

1 - أن يكون اللفظ موجوداً هو نفسه من قبل، ولكنّ القرآن أعطاه معنىً اصطلاحيّاً جديداً يُفهَم من خلال السياق الخاصّ، اللغويّ أو البيانيّ، الذي جاء فيه.

2 - أن يكون اللفظ غير موجودٍ ولكن القرآن يشتقّه من جذرٍ موجودٍ ومتداوَلٍ ومألوف المعنى، فيعطيه، من خلال صياغته الجديدة، معنىً مختلفاً، ليس هو معنى اللفظ أو الجذر المتداول، وإن كان يمتّ إليه بصلةٍ يقرّرها السياق الذي يأتي فيه.

3 - ألّا يكون اللفظ ولا جذره موجودَين أو متداولَين أصلاً، فأوجده القرآن، ثم جاء في سياقٍ لغويٍّ يوجّه السامع أو القارئ نحو المعنى الجديد، تحديداً أو تلميحاً.

هذه الأنواع الثلاثة هي التي تشكّل الخزّان الأكبر للألفاظ الجديدة في القرآن الكريم. ولكنّ هذه الحقيقة لا تكفي للإجابة عن تساؤلاتنا وكشف السرّ الإعجازيّ وراء قبول العرب للّغة الجديدة، ثمّ انبهارهم ببلاغتها وجمالها.

ومع ذلك، فإنّنا لم نعوّل كثيراً في إثبات الإعجاز التجديديّ للغة القرآن، كما يتبيّن للقارئ بسهولة، على كميّة "الألفاظ الجديدة" فيه، مثلما لم ننتهج الوقوف على مَواطن الجمال في لغته وإبراز هذه المواطن، فالدراسة الجماليّة من عمل البلاغيين وقد أدّوا واجبهم فيها خير أداء، ووظّفوا في عملهم، على نحو مدهش، كلّ ما بين أيديهم من علومٍ لغويّةٍ ونحويّةٍ وبلاغيةٍ لإلقاء الضوء على ما خفي علينا من روعة التعبير القرآنيّ.

لقد جاء القرآن الكريم بألفاظه الخاصّة مثلما جاء بسبائكه وتراكيبه وعلاقاته اللغويّة الخاصّة أيضاً. ولكن يجب أن نكون واعين بالفرقين الهامّين بين موقعَي كلٍّ من اللفظ القرآنيّ والسبيكة القرآنيّة.

لم تكن كلمات القرآن كلّها، أو معظمها، جديدةً على اللغة العربيّة كما هو الحال في سبائكه، من ناحية، ولم تكن عصيّةً كلّها على الاقتباس والاستخدام في لغتنا البشريّة، على عكس السبائك أيضاً، من ناحيةٍ أخرى.

obeikan.com

وهذه الميزة الأخيرة هي التي فتحت الباب واسعاً أمام العربيّة لتنهل من لغة القرآن وتَثرى بألفاظه ومصطلحاته الجديدة.

وإذا عرفنا مثلاً أنّ سورة (الفاتحة) ليس فيها أكثر من ثلاثة ألفاظ جديدة من أصل 58 موقعاً لغويّاً جديداً أضافته إلى معجمنا، أدركنا أن مسألة صحّة أو عدم صحّة الشعر الجاهليّ، ومن ثمّ وجود الألفاظ القرآنيّة الجديدة في هذا الشعر أو عدم وجودها، مسألةٌ ثانويّةٌ في تقييمنا ومحاولتنا إثبات جدّة اللغة القرآنيّة وخصوصيّتها الفنّية.

ولكنّ إثباتنا لجدّة هذه الجوانب اللغويّة جميعاً في القرآن لا بدّ أن يلقي بظلّه على ألفاظه أيضاً، ليزيدنا اقتناعاً، من غير الحاجة إلى مرجعيّة الشعر الجاهليّ وتوثيقه، بحتميّة وجود أعدادٍ كبيرةٍ من الألفاظ الجديدة في كلّ سورةٍ من سوَره.

أنواع اللفظ الجديد:

قد تأتي خصوصيّة اللفظ القرآنيّ من جِدّته اللفظيّة والمعنويّة معاً إذا لم يكن أحدٌ من العرب قد سبق إلى استعماله قبل نزول الوحي. ويكون هذا النوع من الألفاظ جديداً بجَذره وباشتقاقه، وغالباً ما يكون معرَّباً عن لغاتٍ أخرى، ولا سيّما الفارسيّة واليونانيّة والحبشيّة والنبطيّة والسريانيّة والعِبريّة والقبطيّة، كمثل هذه الألفاظ:

الصراط، سبحانك، أبّ، قَسْوَرة، سِجّين، بَرزَخ، سِجّيل، السِجِلّ، التَنُّور، ضِيزَى، قَمْطَرير، سُنْدُس، إِستَبْرَق، أباريق، القِسط، القِسطاس، الفِردَوس، المِشكاة، طُوبَى، قَراطيس، سُرادِق، تَنّور، إلّ، كُرسيّ، الأرائك، الجِبْت، الطُّور، اليَمّ..

أو قد يكون جديداً باشتقاقه ولكنّه مأخوذٌ من جذرٍ لغويٍّ عرفه العرب من قبل، وهذا أكثر، مثل:

آتاه، ملكوت، طاغوت، الجاهليّة، صَلوات، هادُوا، مَقامِع، الفُرقان، الرقيم، مَرْقوم، المحراب، القَصَص، غُزًّى، المُحتظِر، الأَنعام، دَحاها،

سُعُر، تَزاوَرُ، مُلتَحَد، العادُون، رَبّانيّون، قانِتون، المنافقون، عِلِّيُّون، شُكُور، الحَيَوان، السُّوأَى، السَلسبيل، تِلقاء، واعَدْنا..

وقد تأتي خصوصيّته من جدّته المعنويّة دون اللفظيّة، إذا كان العرب قد عرفوه بهذا الشكل ولكن لم يعرفوه بهذا المضمون الجديد، وهذا كثيرٌ جدّاً في القرآن. وتتحقّق خصوصيّة هذا النوع من جِدّة استعمال ألفاظه وطريقة ارتباطها مع الأدوات أو الألفاظ، قبلها أو بعدها، بحيث تكتسب في السياق الجديد معنىً آخر جديداً مختلفاً عن المعنى القديم، كالألفاظ:

سلطان، مَرَض، تولّى، أسلَم، الدنيا، الصالحات، الشاهدين، الشهّداء، الرُّوح، خاشعِين، نبتهل، إصْر، كتاب، البيّنة، البِرّ، عِوَج، الحَرْث، يَنظُرون، يَسْطُون، المُهتدون، البُروج، القَدْر، يَقْدِر، يُقَدِّر..

وربّما تجاوز اللفظ مرحلة الجِدّة والابتكار إلى مرحلةٍ أكثر غنىً وتفاعلاً مع الحياة اليوميّة، وهي مرحلة الاستقرار والشيوع وكثرة التداول، فيرتقي بهذا إلى مستوى (مصطلح) وهذا يعبّر، بلفظه المفرد وحده أو مرتبطاً بلفظٍ آخر أحياناً، عن معنىً أكبر من حجمه بكثير، مثل:

المؤمن، الكافر، الذِّكر، المَساجد، الساعة، الأجر، التقوى، الحَسَنة، السيّئة، النِّكاح، الغيب، الشهادة، الصلاة، الزكاة، الإيمان، الجهاد، الشرك، الآخرة، القيامة، النار..

وقد تأتي الخصوصيّة أيضاً من المعنى المجازيّ الجديد الذي أضفاه القرآن على اللفظ فمنحه بذلك قوّة الصورة البيانيّة. وربّما خَفي علينا مع الزمن أصلُ هذه الصورة حتى لنظنّ أنّ اللفظ وُلد وهو يحمل هذا المعنى. إنّه نوعٌ من توالُد الألفاظ معروفٌ في كلّ اللغات، وبه تَغنى اللغة وتزدهر، ويقوم بابتكاره الشعراءُ بشكلٍ خاصٍّ ثم الأدباء والكتّاب المبدعون.

فاللفظ (سفينة) مثلاً وُلد في الأصل من الفعل (سَفَن) أي (قَشَر) فشبّهوها وهي تشقّ البحر بسكّينٍ تقشره، ولفظ (الغابِر) جاء من قولهم (غَبَر الفارس) إذا ابتعد فلم يظهر منه إلّا ما يثير فرسُه من غبار، واللفظ (جِنّيّ) جاء من

الفعل (جَنّ) أي (غطَّى) فكأنّ هذا المخلوق قد غُطِّي فامتنعت علينا رؤيته، واللفظ (شكر) جاء من (الشَكور) وهي الناقة التي يظهر سِمنُها فوق ما تُعطَى من علف، ووصفُ المسألة المعقّدة بأنّها (مُعضِلة) جاء من قولهم (عَضَلت الدجاجة) أي احتبس بَيضُها عن الخروج لضيقِ عضلاتها فهي مُعضِلة، ولفظ (التابوت) جاء من (التَوب) أي (العودة) لأنّه مَركبةٌ للرجوع إلى الله، ولفظ (الشورى) وهو (استخراج الرأي السليم) جاء من (شِرتُ العسل) إذا استخرجتَه من خلاياه، وقولنا (كظم غيظه) جاء من قولهم (كظم البعيرُ جِرّتَه) إذا ردّ ما يجترّه إلى جوفه، وقولنا (فلانٌ سفيهٌ) جاء من قولهم (ثوبٌ سفيهٌ) أي ضعيف النسج، وقولنا (غُلوٌّ) من قولهم (غَلا بالجارية لحمُها وعظمُها) أي أسرعت في النموّ حتّى جاوزت لِداتِها، وقد سُمّي (الحصان) هكذا لأنّه يُحصن من يركبه ويحميه، وقالوا (حِكمة) تشبيهاً لها بـ (الحَكَمَة) وهي ما يُحيط بالحنك من اللجام ليمنع الفرس من الاضطراب..

إنّها في الحقّ طريقة ميلادِ معظم الألفاظ التي تملأ معاجم لغاتنا. وقد أغنى القرآن لغتنا العربيّة بمئاتٍ من مثل هذه الألفاظ الجديدة لم تعرفها العربيّة من قبل، حتّى أضحى من الصعب على القارئ العاديّ أن يميّز اليوم بين ما هو قرآنيٌّ منها وما عرفته العربيّة قبل الوحي.

ومن هذه الكلمات المجازيّة القرآنيّة الألفاظ التالية، وهي غيضٌ من فيض، وكلّها يحمل معنىً جديداً لم يكن يحمله قبل نزول القرآن الكريم:

الإسلام، الكُفْر، يتزكّى، السِدرة، المِيزان، الحَرْث، الهُدى، الضَلالة، التقوى، الأمّة، اللباس، المُحصَنات، الآية، الأوّاب، الأجَل، الوازِرة، الحافِرة، الساهِرة، الخُنَّس..

طبيعة التجديد اللفظيّ:

لقد تناول الدارسون، القدماء منهم والمحدثون، هذا النوع من الألفاظ الجديدة في القرآن، وإن اختلفوا فيها اختلافاً لم يكن أساسَه إلّا خوفٌ غير مسوَّغٍ أُثير بين اللغويّين من أن يقال إنّ لغة القرآن الكريم مختلفةٌ عن لغتنا،

كيف وهو الذي يؤكّد بإلحاح، وفي أكثر من عشر آياتٍ، على أنّه أُنزِل عربيّاً وبلسانٍ عربيٍّ مبين.

وقد وجدنا من تجرّأ وجاهر بحقيقة اللغة الجديدة هذه، وهو يتحسّب للمعارضة الشديدة من اللغويّين والنحويّين، فلا يجد بدّاً من أن يقسم بالله تعالى على جدّة لغة القرآن، كما حصل حين نزلت آية سورة (الأعراف): ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً إنّا هُدْنا إليكَ﴾ [الآية 156] فقال أبو وجزة السعديّ حين سمع الآية، تبعاً لرواية ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ: "لا والله ما أعلمُها في كلامِ العرب (هُدْنا)، قيل: فكيف؟ قال: (هِدْنا) بكسر الهاء، يقول: مِلْنا".

وعبقريّة هذا التجديد، كما أكّدنا دائماً، تكمن في أنّه جاء من داخل اللغة وليس من خارجها، فالقرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدةٍ غير اللغة العربيّة، بل بَعث في هذه اللغة القديمة، مستنِداً إلى قواعدها/أعرافها الأساسيّة نفسها، روحاً جديدةً، وأحدث فيها ثورةً من نوعٍ فريد، بحيث لا تقارَن، في سرعة تحقّقها، وحجم إنجازاتها، ومساحة تأثيرها، وشمولها لمختلف أبعاد اللغة، وعمق فاعليّتها في هذه الأبعاد، مع أيّة ثورةٍ لغويّةٍ حدثت لأيّة لغةٍ أخرى في التاريخ القديم أو الحديث على الإطلاق، ومن ضمنها الثورة الحاليّة الهائلة التي تشهدها اللغة الإنكليزيّة مع انتشار الحاسوب وأدواتِه وأنظمته ومصطلحاته.

وبقدر ما كنتُ في الماضي غير مدركٍ لحقيقة الإعجاز اللغويّ في القرآن، محيَّراً في أمر التحديّ الإلهيّ الفائق الجرأة للعرب بأن يأتوا بمثله، ومحيَّراً أكثر في أمر عجزهم عن الوقوف أمام هذا التحدّي، مع سهولته في نظري آنذاك، غدوت بعد ذلك، وقد أعانني الله على اكتشاف بعض مظاهر هذا الإعجاز التجديديّ، أستَهْوِلُ وأستعظِم خطيئة مَن تَشكَّك من العرب الأوائل، ولو للحظةٍ واحدةٍ بسماويّة القرآن، كما غدوت أقلّ استغراباً ودهشةً بإزاء الروايات التي تتحدّث عمّن أسلموا أو صُعقوا، أو ربّما ماتوا، حال سماعهم للقرآن الكريم.

لقد سمعوه آنذاك وهم يملكون ما فقدناه نحن اليوم: عذريّةَ الأذن التي حَظيت بسماع لغة السماء قبل أن يذهب بعذريّتها بعد ذلك عاملُ الأُلفة، وهو العامل الفتّاك الذي يقتل الإحساس بالمعجزة وهي تتكرّر أمام أعيننا أو على أسماعنا مرّةً بعد مرّة. وإذن فلا عُذر لأحدٍ في عدم التصديق بالرسالة وهو يتلقّى أوّل مرّةٍ تلك المعجزة اللغويّة المدهشة والمستمرّة ملء السمع والبصر.

معجزة الجمع بين الجِدّة والوضوح:

لقد شُحنت سوَر الكتاب الكريم بعددٍ كبيرٍ من الألفاظ الجديدة، بأنواعها المختلفة. وهذا أمرٌ دفع بكثيرٍ من المشكّكين الغربيّين إلى الادّعاء أنّ لغة القرآن ليست عربيّة، وكأنّ القرآن نفسه لم ينصّ صراحةً وأكثر من مرّةٍ على أنّه نزل "بلسانٍ عربيٍّ مبين". وكان أحدَ آخر من أسرفوا في هذا الادّعاء المستشرق الألمانيّ كريستوف لوكسنبرغ الذي زعم في كتابه "القراءة السريانيّة - الآراميّة للقرآن" الصادر بالألمانيّة عام 2000 أنّ القرآن قد "وضعه" محمّد ﷺ وقد استمدّه من خلفيّةٍ مسيحيّةٍ[4] وأنّ لغته ليست عربيّةً بل سريانيّةٌ / آراميّةٌ وهي لغة التجّار الذين كانوا يفدون على مكّة ويختلطون بأهلها، وذهب إلى أنّ معاني القرآن ستختلف كلّياً، على ضوء هذه "الحقيقة"، عمّا ذهب إليه المفسّرون المسلمون[5].

ولكنّ الإعجاز اللفظيّ لا يكمن في جِدّة كلمات القرآن فحسب، وقد عرفنا أنّ جدّتها، خلافاً لما يدّعيه لوكسنبورغ، جاءت على صيغٍ ومقاييس هي من صُلب قواعدنا اللغويّة العربيّة، لا يكاد يخرج عن هذه الصِيَغ لفظٌ قرآنيٌّ واحد، وإنّما تكتسب إعجازها من وضعها ضمن سياقاتٍ لغويّةٍ متفوّقةٍ تتيح للناس أن يدركوا معانيها مع جدّتها، ومن ثمّ، أن يفهموا الجمل والعبارات التي تضمّنتها.

(4) قصّة الخلفيّة المسيحيّة ما فتئت تتردّد باستمرار عند المستشرقين وعند المبشّرين على السواء.

(5) Christoph Luxenberg. *The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran*. English Edition. Germany: 2007.

obeikan.com

وهكذا، قد يكون العرب قد عرَفوا قبل القرآن اللفظ (بارك)، ولكنّهم لم يعرفوا اللفظ المشتقّ منه (تبارك) كما جاء في القرآن، ومع هذا تقبّلوه وفهموه،

ولعلّهم قد عرفوا لفظ (العالي)، ولكنّهم لم يعرفوه صفةً للّه عزّ وجلّ وقد وردت في صورةِ فعلٍ ماضٍ (تعالَى)، ولم يعرفوه ظرفاً للمكان (عاليَهم) كما ورد في القرآن، وقد تقبّلوا اللفظين الجديدين مع ذلك وفهموهما،

ولعلّهم عرفوا الاسم (لقاء) ولكنّهم لم يعرفوا الظرف (تِلقاء)،

أو عرفوا الفعل (يرائي) ولكنّهم لم يعرفوا المصدر (رِئاء)،

وعرفوا اللفظ (كذلكَ) ولكنّهم لم يعرفوه بالكسر (كذلكِ)،

وعرفوا اللفظ (هؤلاء) ولم يعرفوا (هاؤم)،

وعرفوا (أولئك) ولم يعرفوا (أولئكم)،

وعرفوا (الجهل) ولم يعرفوا (الجَهالة) ولا (الجاهليّة)،

وعرفوا (اتّقى) ولم يعرفوا (التقوى)،

وعرفوا (القراءة) ولم يعرفوا (القرآن)،

وعرفوا (السُوْر) ولم يعرفوا (السُورَة)،

وعرفوا (الفَرْق) ولم يعرفوا (الفُرْقان)،

وعرفوا (الغَسل) ولم يعرفوا (الغِسْلِين)،

وعرفوا (الكَذّاب) ولم يعرفوا (الكِذّاب)،

وعرفوا (العَجَب) ولم يعرفوا (العُجاب)،

وعرفوا (الشُّكْر) ولم يعرفوا (الشُّكُور)،

وعرفوا (السُّوء) ولم يعرفوا (السُّوأى)،

وعرفوا (الكبير) ولم يعرفوا (الكُبّار)،

وعرفوا (الحياة) ولم يعرفوا (الحَيَوان)،

وعرفوا (العالَم) ولم يعرفوا (العالَمين)،

وعرفوا (الشاهد) ولم يعرفوا (الأشهاد) أو (الشهداء). .

لقد فهم العرب كلّ هذه الألفاظ، ومعها مئاتٌ أخرى من الألفاظ القرآنيّة الجديدة المبتكرة، العربيّة، أو المعرّبة وفقاً للقواعد اللغويّة العربيّة.

إنّ هذا الجمع بين الجِدّة والإفهام هو جانبٌ آخر من جوانب الإعجاز التجديديّ المحيِّر في القرآن الكريم.

الاستعمالات الجديدة للأدوات القديمة - (كان) و(ما زال):

ويدخل في الألفاظ القديمة - الجديدة ما يفوق، بدرجته التجديديّة وامتناعه على التقليد، النوعَ الآخر من الكلمات التي استحدثها القرآن، بألفاظها ومعانيها، أو بمعانيها وحدها، أو باشتقاقها القرآنيّ الخاصّ، ذلك هو الاستعمال الجديد للأدوات القديمة.

لقد سبق أن عرفنا المعنى القرآنيّ الجديد الذي حمله الفعل الناقص (كان)، والذي ظلّ حتّى الآن مستعصياً على الاستعمالات البشريّة. وحاولْ أن تصوغ، لو استطعت، جملةً عربيّةً واحدةً تأتي فيها (كان) بالمعنى القرآنيّ (إنّ)، ولا تُتعب نفسك فلن تصل إلى نتيجة. لقد خَلتِ العربيّة تماماً، ومعها الحديث الشريف، وستظلّ خاليةً أبداً، من هذا الاستعمال القرآنيّ المحيِّر، شأنها مع كثيرٍ من الاستعمالات القرآنيّة المحيِّرة الأخرى.

لربّما اقترح أحدنا أن يصوغ جملةً مثل (وكانت الحكمة ضالّةَ المؤمن) بمعنى (إنّ الحكمة ضالّة المؤمن) ولكنّ من يقرأ هذه الجملة سيدرك حالاً أنّها جملةٌ بشريّةٌ أُلبِسَت لباساً قرآنيّا بأن بُنيت على أساس سبائك قرآنيّةٍ من مثل (كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً - وكان وعدُ ربّي حقّاً - وكان الشيطان للإنسان خَذولاً) وستبقى العبارةُ بهذا غريبة الزمرة الدمويّة ومفصحةً عن لباسها القرآنيّ، وغير قادرةٍ على تمويه نفسها والتسرّب إلى ألسنتنا على أنّها جزءٌ من

لغتنا العاديّة، وإلّا لم يكن مصيرها في ساحة لغتنا المتداولة إلّا الرفض، وربّما إثارة السخريّة لدى السامعين، شأنها شأن أيّة محاولةٍ لتقليد لغة القرآن.

إنّ الصيغة البشريّة المتوقَّعة لهذا المعنى هي شيءٌ ما على نمط الصيغة النبويّة التي جاءت فيها هذه الحكمة أصلاً، وهي قوله ﷺ: "الحكمةُ ضالّةُ المؤمِن". أمّا لو قلنا: (وكانت الحكمة دائماً ضالّة المؤمن) فستعود الجملة إلى بشريّتها لأنّ الظرف (دائماً) أخرج (كان) من وعائها الزمنيّ المعتاد ذي البعد الواحد (الماضي) إلى الوعاء الزمنيّ الشامل ذي الأبعاد الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فأضحت هنا بمعنى (إنّ) ليس بفضل شحنتها المعنويّة الذاتيّة، التي تتمتّع بها في السياق القرآنيّ، بل باتّكائها على الظرف المساعد (دائماً) الذي يغطّي في لغتنا أصلاً الأبعاد الزمنيّة الثلاثة.

وهذا الاستعمال الجديد لـ (كان) أشكَل مرّةً حتى على الصحابة كما نتبيّن من حديثٍ طويلٍ لعبد الرزّاق في تفسيره. وفيه أنّ رجلاً سأل ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أسئلةً عديدةً في لغة القرآن كان آخرها سؤاله: "وأسمعه (تعالى) يقول: (وكان اللهُ) ما شأنه يقول (وكان الله)"؟ بل وصل الأمر ببعض العرب من اليهود إلى السخرية من هذا المعنى، الجديد عليهم كلّياً، كما تدلّنا رواية ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس: "أنّ يهوديّاً قال لابن عبّاس: إنّكم تَزعُمون أنّ الله (كان) عزيزاً حكيما، فكيف هو اليوم؟"[6].

واختلف استعمال القرآن للفعل (ما زال) أيضاً عن استعمالنا له. فحين نقول: ما زال المطر يهطل، سيفهم السامع أنّ المطر كان يهطل من قبل وهو مستمرٌّ في الهطول إلى الآن؛ أي إنَّ الفعل يستغرق الزمنين (الماضي والحاضر) معاً. هذا هو شأننا مع الفعل في استعمالاتنا البشريّة.

ولكنّنا نجد في القرآن صيغتين مختلفتين لهذا الفعل: صيغة الماضي، وتستخدم أداة النفي (ما) فقط، أي (ما زال)، وصيغة المضارع، وتستخدم

(6) انظر هذه الروايات وغيرها في: السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ص52-53.

أداة النفي (لا) فقط، أي (لا يزال)، وهذا يعني أنّنا لن نجد في القرآن الصيغتين المتداولتين في لغتنا العاديّة (ما يزال) و(لا زال) خلافاً لما ذهب إليه صديقنا المستشرق البريطانيّ ممّا ذكرناه في المقدّمة.

ولكنّ الأهمّ من ذلك هو أنّ الصيغتين القرآنيّتين كلتيهما لهما وظيفتان تختلفان تماماً عن وظيفتيهما في لغتنا البشريّة.

إنّ صيغة الماضي للفعل (ما زال) تحمل في القرآن معنىً يختلف عن المعنى الذي درجنا عليه في لغتنا. فالفعل، في الآيتين الوحيدتين اللتين يرِد فيهما، يغطّي الزمن (الماضي دون الحاضر). إنّه هناك بمعنى: (ظلّ) أو (بقي) أو (استمرّ) فيما مضى من الزمان ثمّ لم يعُدْ هكذا الآن:

- ﴿فما زالت تلك دعواهم حتّى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ [الأنبياء: 15]

- ﴿ولقد جاءكم يوسُفُ مِن قبلُ بالبيّناتِ فما زِلتُم في شكٍّ مّما جاءكمْ به حتّى إذا هَلَك قلتُم لن يَبعثَ اللهُ مِن بَعدِه رسولا﴾ [غافر: 34]

فالآية الأولى تعني: لقد استمرّوا بهذه الدعوى (في الماضي) حتّى قُضي عليهم وانتهوا (في الماضي). والآية الثانية تعني: حافظتم (في الماضي) على الشكّ في رسالة يوسف حتّى مات (في الماضي). وهكذا بدأ زمن الفعلين وانتهى في الزمن الماضي من غير أن يدخل في منطقة (الحاضر).

أمّا صيغة المضارع فقد اقتصرت في الاستعمال القرآنيّ، حقّاً، على (لا يزال) ولكن، ويا للمفاجأة، جاء الفعل هنا أيضاً مخالفاً تماماً لاستعمالاتنا البشريّة. إنّه يستغرق (الماضي والحاضر والمستقبل) معاً، أي: كان الأمر في الماضي، وهو كذلك الآن، وسوف يستمرّ هكذا في المستقبل، وهو ما توضّحه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دِينِكم﴾ [البقرة: 217]
- ﴿ولا يزالُ بنيانُهمُ الذي بنَوا رِيبَةً في قلوبِهم إلّا أنْ تَقَطّعَ قلوبُهم﴾ [التوبة: 110]
- ﴿ولو شاءَ ربُّكَ لجعلَ الناسَ أمّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين. إلّا مَن رَحِمَ ربُّكَ﴾ [هود: 118-119]

- ﴿ولا يزالُ الذين كفروا تُصيبُهُم بما صنعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً مِن دارِهم حتّى يأتيَ وعدُ الله﴾ [الرعد: 31]

فالمشركون، في الآية الأولى، قاتَلوا، ويقاتلون المسلمين الآن، وسوف يظلّون يقاتلونهم في المستقبل. والبنيان، في الآية الثانية، كان في الماضي، وهو إلى الآن رِيبةٌ في قلوبهم، وسوف يبقى كذلك في المستقبل. والناس في الآية الثالثة كانوا وما زالوا وسوف يستمرّون مختلفين. والكفّار، في الآية الرابعة، أصابتهم قارعةٌ، وتصيبهم الآن، وسوف تظلّ تصيبهم في المستقبل.

إنّها استعمالاتٌ ظلّت حتّى الآن، في صيغتيها الماضي والمضارع، مقتصرةً بمعنييها الجديدين على القرآن الكريم، مع تأثّر الحديث الشريف بالاستعمال القرآني لصيغة المضارع خاصّةً من هذا الفعل، ومن ذلك قوله ﷺ:

- وإنّكم لن تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتم الصلاة.
- لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي على الحقّ حتّى يأتيَ أمرُ الله.
- ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، إلى يوم القيامة.

استعمالاتٌ جديدةٌ للأدوات الأخرى:

هذه الثورة اللغويّة من الاستعمالات الجديدة للأدوات القديمة شملت عشرات الأدوات في القرآن الكريم، منها هذه الأدوات التي سنتحدّث عنها بعد قليل، وهي على سبيل المثال وليس الحصر:

أمْ - كأنّ - لا - هل - قد - ربّما - لمّا - ما - لو - لولا - كما - ثُمّ - حاشا - لئلّا - إذنْ - إذا - إذْ - ذلك - إلّا - حتّى - ما برح - ما فتئ - صار - أمسى - بات - على - إنْ - عن - إنّ..

بل نستطيع القول إنّ هذه الثورة قد غطّت معظم الأدوات النحويّة المستعملة في لغتنا العربيّة كما سيتّضح لنا في دراستنا التطبيقيّة للسوَر.

obeikan.com

وسنتوقّف عند بعض هذه الأدوات ليتّبيّن لنا من خلال السياق القرآنيّ كيف اختلفت معانيها واستعمالاتها في القرآن الكريم عمّا هي عليه في لغتنا منذ نصوصها الأولى في العصر الجاهليّ حتّى يومنا هذا:

فما أكثر ما يتحوّل معنى (لا) في القرآن إلى (نَعَم) أو إلى التأكيد بدلاً من النفي، كما في قوله تعالى:

- ﴿فلا أُقسِمُ بمَواقعِ النجوم﴾ [الواقعة: 75]
- ﴿فلا أُقسِمُ بما تُبصِرون﴾ [الحاقّة: 38]

أو يتحوّل معنى (هل) الاستفهاميّة إلى (قد) التحقيقيّة:

- ﴿هل عَلِمْتُمْ ما فعلتُم بيوسُفَ وأخيه إذْ أنتمْ جاهلون﴾ [الكهف: 89]
- ﴿هل أتى على الإنسانِ حِينٌ من الدهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً﴾ [الإنسان: 1]

أو يتحوّل معنى (قد) التقديريّة (وهي التي تسبِق الفعل المضارع وتفيد الاحتمال والتشكيك) إلى (قد) التحقيقيّة (وهي التي تسبق الماضي وتفيد القطع والتأكيد):

- ﴿قد نَرى تَقلُّبَ وجهِكَ في السماء﴾ [البقرة: 144]
- ﴿قد يعلمُ اللهُ المعوِّقِين منكمْ﴾ [الأحزاب: 18]

وكذلك (ربما) التي نراها تدخل في القرآن على المضارع، وليس على الماضي كما هي في لغتنا، فيتحوّل معناها من التقدير أو الاحتماليّة إلى التحقيق والتأكيد:

- ﴿رُبَما يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مُسلمين﴾ [الحِجر: 2]

أو يتحوّل معنى (لمّا) إلى (إلّا) الاستثنائيّة أحياناً:

- ﴿وإنْ كلٌّ لمّا جميعٌ لدَينا مُحضَرون﴾ [يس: 32]
- ﴿وإنْ كلُّ ذلكَ لمّا مَتاعُ الحياةِ الدّنيا﴾ [الزُّخرُف: 35]

وأحياناً أخرى إلى (ثُمّ) فلا نجد بعدها أو قبلها فعلاً أو اسماً يحمل معنى الفعل ويصلح أن نعلّقها به كما نفعل مع ظروف الزمان والمكان:

- ﴿فلمّا ذهَبوا به وأجْمعوا أنْ يَجعَلوه في غَيابَة الجُبِّ وأوحَينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِمْ هذا وهمْ لا يَشعرون﴾ [يوسُف: 15]
- ﴿ولمّا دخلوا مِن حيثُ أمَرَهمْ أبوهمْ ما كانَ يُغْني عنهمْ مِنَ اللهِ مِن شيءٍ إلّا حاجةً في نفْسِ يعقوبَ قَضاها﴾ [يوسف: 68]

أو تأتي (أنْ) زائدةً بعد (لمّا):

- ﴿فلمّا أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً﴾ [يوسف: 96]

أو تأتي (ما) زائدةً بعد (لو):

- ﴿لو ما تأتينا بالملائكةِ إنْ كنتَ منَ الصادقين﴾ [الحِجر: 7]

أو تتحوّل (لو) عن وضعها الشرطيّ إلى وضع (لو) التي للتمنّي، فتتخلّى عن جواب الشرط:

- ﴿ولو أنّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾ [الرعد: 31]

أو يتحوّل معنى (لولا) التحضيضيّة إلى معنى (ما) النافية بحيث يتلوها استثناءٌ، ومن غير أن تفقد معنى الحضّ، وربّما التوبيخ، كما في قوله تعالى:

- ﴿فلولا كانتْ قريةٌ آمنتْ فنفعَها إيمانُها إلّا قومَ يونُسَ لمّا آمنوا كشَفْنا عنهمْ عذابَ الخِزْيِ﴾ [يونس: 98]
- ﴿فلولا كان مِن القرونِ مِن قبلِكمْ أولُو بقيّةٍ يَنهَونَ عن الفسادِ في الأرضِ إلّا قليلاً ممّن أنجَينا منهمْ﴾ [هود: 116][7]

أو يتحوّل معنى (لولا) الشرطية الامتناعيّة (امتناع شيء لوجود غيره) إلى معنى التذكير أو الإشارة:

- ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكمْ ورحمتُه وأنّ اللهَ توّابٌ حكيمٌ﴾ [النور: 10]

---

(7) مع ملاحظة أنّ (لولا) التحضيضيّة، على ذلك، نادرة الاستعمال في الشعر الجاهليّ، ولكنّها تصبح ظاهرةً لغويّةً بارزةً في القرآن الكريم

obeikan.com

- ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكمْ ورحمتُه وأنّ اللهَ رَؤوفٌ رحيمٌ﴾ [النور: 20]

فيذكّرنا تعالى بفضله ورحمته وكأنّه يقول لنا في الآيتين: وهذا فضله عليكم وتوبته وحكمته ورأفته فاذكروها. وبهذا لا تحتاج (لولا) إلى الجواب المقترن باللام والذي تتطلّبه عادةً أختُها الشرطيّة.

أو يتحوّل معنى الأداة المركّبة (كما) إلى ما يشبه معنى (لقد):

- ﴿ولأُتِمَّ نِعمتي عليكمْ ولعلّكمْ تَهتدون. كما أرسلْنا فيكمْ رسولاً منكمْ يتلو عليكمْ آياتِنا ويُزكّيكمْ ويُعلّمُكمُ الكتابَ والحكمةَ ويعلّمُكمْ ما لم تكونوا تَعلمون﴾ [البقرة: 150-151]

- ﴿أولئكَ همُ المؤمنون حقّاً لهمْ درجاتٌ عند ربِّهم ومغفِرةٌ وأجرٌ كريم. كما أخرجكَ ربُّك مِن بيتِكَ بالحقّ..﴾ [الأنفال: 4-5]

أو تتحوّل أداة العطف (ثمّ) عن وظيفتها الأساسيّة لتفيد زيادة التأكيد:

- ﴿وما أدراك ما يومُ الدِّين. ثمّ ما أدراك ما يومُ الدِّين﴾ [الانفطار: 17-18]

- ﴿كلّا سوف تعلمون. ثمّ كلّا سوف تعلمون﴾ [التكاثر: 3-4]

أو تتحوّل (حاشا) الاستثنائيّة - المنتهية بالألف - حيثما وقعت في القرآن (مرّتين) لتصبح (حاشَ) التنزيهيّة - ومن غير ألِف -:

- ﴿وقُلْنَ حاشَ للهِ ما هذا بشراً﴾ [يوسف: 31]

- ﴿قُلْنَ حاشَ للهِ ما عَلِمْنا عليه مِن سُوء﴾ [يوسف: 51]

أو تصبح (لئلّا) بمعنى (لكي):

- ﴿لِئلّا يَعلمَ أهلُ الكتابِ ألّا يَقدِرون على شيءٍ﴾ [الحديد: 29]

أو تفقد (إذَنْ/ إذاً) الناصبة للمضارع فاعليّتها فتتوقّف في القرآن عن النصب حيثما وردت:

- ﴿وإذاً لا يَلبثون خِلافَكَ إلّا قليلاً﴾ [الإسراء: 76]

- ﴿وإذاً لا تُمَتَّعون إلّا قليلاً﴾ [الأحزاب: 16]

أو تقترن (إذا) الشرطيّة بـ همزة الاستفهام ليتكوّن منهما معاً أداةٌ جديدةٌ

للإنكار، بل لتتخصّص بإنكار البعث دون غيره كما يرصد لنا عبد الخالق عضيمة(8).

- ﴿وقالوا أئِذا كُنّا عِظاماً ورُفاتاً أئِنّا لَمبعوثون خَلْقاً جديداً﴾ [الإسراء: 49]
- ﴿ويقولُ الإنسانُ أئِذا ما مِتُّ لسَوفَ أُخرَجُ حَيّاً﴾ [مريم: 66]
- ﴿قالوا أئِذا مِتنا وكُنّا تُراباً وعِظاماً أئِنّا لَمَبعوثون﴾ [المؤمنون: 82]

أو تتخلّى (إذا الشرطيّة) هذه عن وظيفتها التقليديّة لتعمل عمل (لو) فيرتبط بذلك جوابُها باللام:

- ﴿ويقولُ الإنسانُ أإذا ما مِتُّ لَسوف أُخرَجُ حيّاً﴾ [مريم: 66]

أو تتخلّى (إذا) الشرطيّة هذه عن جوابها فتصبح بمعنى (كم) التكثيريّة فلا تحتاج إلى جواب:

- ﴿وإذا قيلَ لهمُ اتّقُوا ما بينَ أيديْكُمْ وما خَلْفَكُمْ لعلّكُمْ تُرحَمون. وما تأتيْهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِمْ إلّا كانوا عنها مُعْرِضِين﴾ [يس: 45-46]

أو ينصرف معنى (إذا) الزمانيّة هذه إلى الماضي بدلاً من زمنها التقليديّ
- المستقبل فتكون بمعنى (أمّا وقد):

- ﴿إذا جاء نصرُ اللهِ والفتحُ﴾ [النصر: 1]

وقد نزلت هذه الآية بعد أن جاء نصر الله وفتحُ مكّة وليس قبلهما.

أو تتحوّل (إذْ) الظرفيّة عن معناها التفسيريّ كما هو في لغتنا (كقولنا: كافأته إذ تبيّنت بطولته) إلى معنى (قد) التأكيديّ:

- ﴿وإذِ ابتلَى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمّهُنّ﴾ [البقرة: 124]
- ﴿وإذْ جَعلْنا البيتَ مَثابةً للناسِ وأمْناً واتّخِذوا مِن مَقامِ إبراهيمَ مُصَلّىً﴾ [البقرة: 125](9)

---

(8) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج1، ص151.

(9) وقد طرح النحويّون لهذه الأداة القرآنيّة حلّاً ينسجم مع قواعدهم النحويّة، =

obeikan.com

أو يأتي اسم الإشارة (ذلك) أو (ذلِكُمْ) بمعنى: (هذا من جهة) أو (بالإضافة إلى هذا)، كما نعبّر عنه بلغتنا المعاصرة:

- ﴿وما رَمَيتَ إذْ رَمَيتَ ولكنّ اللهَ رَمَى وليُبْلِيَ المؤمنين منه بَلاءً حَسَناً إنّ اللهَ سميعٌ عليمٌ. ذلكُمْ وأنّ اللهَ مُوهِنُ كَيدِ الكافرين﴾ [الأنفال: 17-18]

- ﴿أولئكَ الذين كَفَروا بآياتِ ربِّهمْ ولِقائِه فحَبِطَتْ أعمالُهمْ فلا نُقيمُ لهمْ يومَ القيامةِ وَزْناً. ذلكَ جزاؤُهمْ جهنّمُ بما كَفَروا واتَّخَذوا آياتي ورُسُلي هُزُواً﴾ [الكهف: 105-106]

أو تتحوّل (إلّا) عن استثنائيّتها لتصبح اسماً بمعنى (سوى) أو (غير) فتكون في موقع الصفة من غير أن تعمل فيما بعدها:

- ﴿لو كان فيهما آلِهةٌ إلّا اللهُ لَفسَدتا﴾ [الأنبياء: 22]

أو لتقترب من الظرفيّة فتتخلّى عن معنى الاستثناء لتصبح بمعنى (بَعْدَ) كقوله تعالى في وصف أهل الجنّة:

- ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلّا الموتةَ الأولى ووقاهم عذابَ الجحيمِ﴾ [الدخان: 56][10].

أو تكتسب (لا) النافية قوّة (لا) الناهية فتَدخل نون التوكيد على المضارع المنفيّ بها، ومن شأن هذه ألّا تدخل عادةً إلّا على المضارع المنهيّ بها:

- ﴿واتّقوا فِتنةً لا تُصيبَنَّ الذين ظَلَموا منكمْ خاصّةً﴾ [الأنفال: 25]

أو ينقلب معنى (لا) من النفي إلى الإيجاب والتأكيد فتصبح بمعنى (نعم) أو (حقّاً):

= فاقترحوا إبقاءها على معناها الأصلي على أن تعلَّق بفعلٍ محذوفٍ تقديره (واذكر)، ولكنّ اقتراحهم هذا لا يعيد إليها على أيّة حال معناها التفسيريّ الذي فقدته في الاستعمال القرآنيّ.

(10) وقد تنبّه الطبري في تفسيره إلى هذا المعنى القرآنيّ لأداة الاستثناء، ولكنّ الجمهور رفض رأيه بحجّة "أنّ مجيء (إلّا) بمعنى (بعد) لم يثبُت". الدرويش، محيي الدّين. **إعراب القرآن الكريم**. دمشق: اليمامة ودار ابن كثير، 1999. ج7، ص133.

- ﴿فلا أُقسِمُ بما تُبصِرون. وما لا تُبْصِرون. إنّه لَقَولُ رسولٍ كريمٍ﴾ [الحاقّة: 38-40]
- ﴿فلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ. والليلِ وما وَسَقَ. والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 16-18]

أو تتخلّى (حتّى) عن عطفيّتها لتقتصر على معنى الزمنيّة، فلا يقع بعدها إلّا فعلٌ ماضٍ أو مضارعٌ أو ظرفٌ أو اسمٌ للزمان[11]:

- ﴿فما اختَلفوا حتّى جاءهمُ العِلمُ﴾ [يونس: 93]
- ﴿حتّى إذا رَكِبا في السفينةِ خَرَقَها﴾ [الكهف: 71]
- ﴿تمَتّعوا حتّى حِينٍ﴾ [الذاريات: 43]
- ﴿سلامٌ هي حتّى مَطْلَعِ الفجرِ﴾ [القَدْر: 5]

أو تتحوّل الأفعال الناقصة (ما برِح) و(ما فَتِئ) و(صار) و(أمسى) و(بات) عن طبيعتها في لغتنا فلا تقع في القرآن إلّا تامّة[12]:

- ﴿لا أبْرَحُ حتّى أَبلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَين﴾ [الكهف: 60]
- ﴿قالوا تاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ﴾ [يوسف: 85]
- ﴿ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمورُ﴾ [الشُورى: 53]
- ﴿فسُبحان اللهِ حينَ تُمْسُون وحينَ تُصْبِحون﴾ [الروم: 17]
- ﴿والذين يَبِيتُون لربِّهم سُجَّداً وقِياماً﴾ [الفرقان: 64]

أو ترتبط (على) بـ (أنْ) فتكتسب معنى الزمنيّة:

- ﴿قالَ أبشَّرتُمونيْ على أنْ مَسّنِيَ الكِبَرُ فبِمَ تُبشِّرونَ﴾ [الحِجر: 54]

أو تتخلّى (إنْ) عن شرطيّتها فتغدو حرفاً زائداً للتوكيد:

- ﴿ولقد مكّنّاهمْ فيما إنْ مَكّنّاكُمْ فيه﴾ [الأحقاف: 26]

أو تكتسب (عن) معنى السببيّة (من أجل) ولم يعرفها العرب بهذا المعنى قبل القرآن:

---

(11) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج8، ص9-10.
(12) المرجع السابق، ج8، ص319-321.

- ﴿وما نحن بتاركِي آلهتِنا عن قولِكَ﴾ [هود: 53]

أو تتحوّل الأداة المشبّهة بالفعل (إنّ) عن حرفيّتها لتصبح بمعنى فعلٍ حقيقيّ، فتتخلّى عن خبرها وتأخذ معنى الفعل (أَنذِر) أو (سأعاقب):

- ﴿إنّ الذين كَفَروا بالذِّكْرِ لمّا جاءِهِمْ وإنّه لَكتابٌ عزيزٌ﴾ [فُصِّلَت: 41]

أو تأخذ الأداة المشبّهة بالفعل (كأنّ) دور أداةٍ أخرى من أخواتها المشبّهات بالفعل فيتحوّل معناها إلى (إنّ):

- ﴿وأصبحَ الذين تمَنَّوا مَكانَه بالأمسِ يقولون وَيْكأنّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ مِن عبادِهِ ويَقْدِرُ لولا أنْ مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا وَيْكأنّهُ لا يُفلِحُ الكافرون﴾ [القَصَص: 82]

أو يتحوّل معنى (أَمْ) إلى (بَلْ):

- ﴿ونادى فِرعَونُ في قومِهِ قال يا قومِ أليس لي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ تَجري مِن تحتي أفَلا تُبْصِرون. أمْ أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مَهِيْنٌ ولا يكادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف: 51-52][13]

إنّه غيضٌ من فيض المعاني المبتكرة التي أعطاها القرآن لعديدٍ من الأدوات والألفاظ ممّا عرفه العرب قبل القرآن الكريم، ولكن في معانٍ واستعمالاتٍ مختلفةٍ عن المعاني والاستعمالات القرآنيّة.

والقرآن الكريم لم يتوقّف عند مثل هذه الاستعمالات الجديدة للأدوات، بل تجاوزها إلى حذف هذه الأدوات حيث اعتدنا أن نجدها في لغتنا التقليديّة. ويعدّد السيوطي أكثر من عشرة أنواع لهذا الحذف، منها حذف همزة الاستفهام، وحذف الموصول الحرفيّ (أنْ المصدريّة)، وحذف الجارّ، وحرف العطف، وفاء جواب الشرط، و(قد)، و(لا) النافية، ولام التوطئة للقسَم،

(13) مع تذكيري دائماً بأنّ هذه التأويلات، أو أيّ اجتهادٍ أو رأي يرد في هذا الكتاب، لا يمكن أن تُعدّ نهائيّةً أو قطعيّة، بل يبقى مثل هذه الأحكام مفتوحاً للزمن ولاجتهادات العلماء، وأظنّه سيبقى على ذلك إلى الأبد.

obeikan.com

ولام (لقد)، ولام الأمر، ونون التوكيد[14].

وإضافةً إلى الوقفات الفرعيّة عند سورة (المدّثّر) التي وعدنا بأن نقفها في ثنايا الكتاب؛ سنتوقّف في الفصل التالي وقفةً متأنّية عند هذه السورة لدراسة ألفاظها دراسةً تفصيليّة، ومن ثَمّ لتقدير حجم الجرعة اللفظيّة المبكّرة من لغة الوحي التي كان على العرب أن يجترعوها منذ الأيّام الأولى للدعوة الجديدة.

(14) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص123 - 124.

obeikan.com